هل الهجرة نعمة أم نقمة؟

الدكتور محسن كمالة : باحث في علم الاجتماع

يندفع سؤال: هل الهجرة نعمة أم نقمة؟ لكن السؤال الأعمق والأكثر تعقيدا الذي يسبقه هو: هل يحق لنا - كباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية أن ننظر للظواهر الاجتماعية من زاوية الأحكام القيمية والأخلاقية بعيدا عن الموضوعية العلمية بتصوراتها النظرية الواضحة، ومناهجها وتقنياتها وأدواتها المحكمة، التي تبحث في جذور وأسباب ونتائج ووظائف وتمظهرات الوقائع الاجتماعية؟

لكن مع قناعتنا أنه من الضروري فصل الذاتي عن الموضوعي، والنظر إلى الظواهر كـ "وقائع اجتماعية" محايدة. فإننا في نفس الوقت ندرك أن الحياد يصبح هو ذاته إشكالا، لأنه يحول أبحاثنا ومقالاتنا وانتاجنا العلمي برمته إلى دراسات باردة وترف فكري، لا يلامس حاجة مجتمع مغربي يسعى للانطلاق نحو بناء دولته الصاعدة.

إننا هنا ومن خلال هذه الخواطر، ندعو "للخروج المؤقت" من برج الباحث الأكاديمي المحكوم بضوابط وحدود علمية معينة، لنتقمَّص روحا جديدة تسرح بخيالها، ليس هروبا من المنهج ومقتضياته العلمية، بل تجاوزا له، نحو رؤية تعطي للعلم معناه الحقيقي، ذلك المعنى الذي يقنعنا أن الهجرة بكل أنواعها فرصة لصناعة المستقبل.

إن هذا الفهم المواطناتي تعود جذوره لوعي ذاتي يفرض علينا طرح سؤال هل الهجرة نعمة أم نقمة؟ ندرك معه أن مراكز الدراسات لم تخلق فقط كمجالات تمارس فيها طقوس التفكير التأملي، وتنجز فيها الأبحاث العلمية، وإنما دورها الأساسي إلى جانب ما ذكرناه، هو صناعة الأمل داخل مجتمعاتها وبلورة التصورات الواضحة التي يمكن للفاعل السياسي والاقتصادي الاتكاء عليها في عملية وضع الخطوط العريضة للسياسات العمومية، التي يراد بها أولا وأخيرا تحقيق التنمية المستدامة الشاملة لأجيال آنية ولاحقة. ولعل هذا الهدف الأخير والأسمى هو الذي يجعلنا نتجرد من صفة الباحث ونتقمص روحا تفيض أملا وإيجابية تنظر للهجرة كنعمة وفرصة ثمينة لبناء المغرب الصاعد.

إن تاريخنا نفسه يشهد أن المغرب تشكَّل عبر هجرات متتالية: من الشرق، ومن الجنوب الإفريقي، ومن الشمال الأندلسي، وهي الهجرات التي كانت بمثابة دورة حيوية جَدَّدت الدماء في عروق هذه الأم التاريخية، وأغنت هويتها، وبلورت كينونتها المتفردة "تمغربيت" المنفتحة على الآخر، والتي ما أن توقفت في ضخ دماء جديدة في البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، حتى دخلت الدولة في غيابها في حقبة من الجمود التي مهدت لمراحل الضعف والاهانة منذ 1884، حينما عجزت معها الأمة المغربية عن مواصلة الابداع والتطور.

نعم، قد أتخلى مؤقتا عن حياد الباحث لأتحدث بلسان وهواجس مواطن يرى في الهجرة فرصة للتنمية الشاملة، ويدرك أننا اليوم لا نحتاج فقط إلى دراسات تصف وتحلل وتفسر ما يحدث فحسب، بل إلى رؤية مجتمعية شجاعة ترحب بالوافدين من المهاجرين من جنوب وشرق وغرب المملكة المغربية، كما تجعل من مغاربة العالم شركاء حقيقيين في بناء ذلك المغرب الصاعد.